فاذا صح ان لبنان طوائف ومناطق اكثر منه وطنا ، فالاصح ان جبل لبنان كان حتى الحرب الاخيرة ، اكثر المناطق تماسكا ووحدة ، بل هو المنطقة الاقرب لان تكون طائفة ٠

فمنذ المتصرفية التي نشأت كشواذ في المشرق العربي ، اصبح الجبل هو القاعدة ٠ وعمل الغرب والاوروبيون على تحويله الى نموذج للحضارة والثقافة والتقدم ، بما هي مفاهيم تتعارض مع العرب والشرقيين ٠

وما ارساه الغرب اكملته المارونية السياسية ، فضمت الملحقات اليه لكي تكون مداه الطبيعي ٠ وبدل ان يكون الجبل للبنان بات لبنان للجبل ٠

واصبح الاقتصاد للجبل ، ورؤساء الجمهورية يأتون من الجبل ، و «التحضير» سمة من سمات الريف الجبلي (!) وصارت بلدة كبرمانا اكثر تقدما من مدينة كطرابلس ٠

وصيغ الماضي على هدي الحاضر ٠ فكتب الجبليون تاريخ الجبل بوصفه كان ديمقراطيا قبل ان توجد الديمقراطية في اليونان ، وكان لبنانيا قبل ان يكون لبنان نفسه ، وكان موعودا بالمسيحية قبل مئات السنين على ولادة المسيح ٠

ونشأ للمنطقة منطق تتشابه فيه الوجوه والرموز ومقاييس الامور ٠ ففخر الدين مؤسس لبنان ، وبشير الشهابي صانع وحدته ، وطانيوس شاهين قائد فلاحيه ٠ وحين يقع اختلاف ضمن هذا المنطق ، فهو يقع في التفاصيل . كأن يميل احدهم الى بشير الشهابي اكثر مما يميل الى بشير جنبلاط ، او يميل الى يوسف كرم اكثر مما يميل الى طانيوس شاهين ٠

لكن هذا التماسك انكسر مع وصول المعركة الى الجبل نفسه ، فالمشروع الوطني لكمال جنبلاط والذي بدأ في حدود تكوين درزية سياسية تعادل تحولات اقتصادية اجتماعية في الطائفة ، تقاطع مباشرة مع المعركة القومية دفاعا عن المقاومة ، الامر الذي يفتح باب الانتساب العضوي لهذه المعركة قفزا فوق الاستثناء الطائفي ٠

ذلك انه منذ انهيار « امارة الجبل » ، لا يوجد افق متاح لتعديل التوازن في تلك البقعة بعيدا عن الارتباط بالوضع العربي ٠

واذا كان الجبل وحدة متماسكة تعرضت للانكسار في ظل المعركة القومية ، فباقي لبنان لم يتماسك اصلا على ارضية لبنانية ٠٠ ولئن كان الكلام عن الطائفة الشيعية يوجز الكلام عن الجنوب ، فالشمال والبقاع لا يختلفان كثيرا ٠

الشمال والبقاع : بعض سكان الشمال لا زالوا يطلقون على الليرة اللبنانية تسمية الليرة السورية ، وبعض مسنيهم لا زال يقيسها على « العثملية » ٠